

## في سبيل العناية بالطفولة

للاستاذ رشاد محمد محبوب

لقد كتبت عن الطفولة من قبل ، وسأكتب عنها اليوم ، ولا أظنني أتردد أن سنحت الفرصة أن أكتب عنها غدا ، وأرجو ألا يكون في هذا إسراف ولا إملال فالطفولة دعامة الحياة ، والحجر الأول في أساسها . وهذا الطفل الذي نضمه إلى أحضاننا لا يبقى أبدا الدهر طفلا بل هو سر الوجود يذاع عنا وصفحة الحياة تشر بأيدينا .

ولست هذه القطعة المتحركة من اللحم باللعبة بل هي العالم . وليس ذلك الدارج بين أعيننا بالشيء الذي لا يؤبه له بل هو خيثة الدهر وسره وربما ضمت طيات ثوبه على رجل الدنيا وواحدنا .

فالعناية بالطفولة خير ألف مرة من استخراج الحديد من أسوان ، ومن كهربية خط حوان ، لأن الثروة الأساسية في هذا البلد هي الطفولة فهي منجم الذهب ونفس نراه يتهب اتهابا ويسرق بين سمنا وبصرنا بأيدي المرض والجهل والفقير . ومن اليسير التأكد من صحة هذا الحكم بموازنة حال الوفيات في أطفال مصر بحالها في أطفال الأمم الأخرى .

فلم إذن نهمل موضوع الطفولة ولا نهتم به الاهتمام كله وكاننا نسينا قول أمير الشعراء المرحوم شوق بك .

وتلك الأوعى بأيامهم	حقائب فيها الفد المحتبيء
ففيها الذي إن يقم لا يعد	من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنار	وفيها التبع وفيها النى
وفيها المؤخر خلف الرحام	وفيها المقدم في الموكب

وبعد فهذه الطفولة التي تحمل في ضعفها ثروة الوطن وعدة المستقبل يجب أن تسأل جزءا كبيرا من عملنا وتفكيرنا .

يولد الحيوان وهو مزود بكل ما يمكنه من إرضاء حاجاته ومن تحقيق التوافق بينه وبين بيئته الطبيعية . ومهما كان نطاق الاكتساب عند بعض الحيوانات كالقردة مثلا فإنه ضئيل جدا إذا قورن بمجال الاكتساب في سلوك الإنسان . فالطفل يولد ضعيفا ويظل مدة طويلة قاصرا عن القيام بإرضاء حاجاته ورغباته بنفسه ، ولا بد له من مساعدة متواصلة ومن توجيه وإرشاد حتى يمتداز المراحل الأولى لنمو الجسماني والعقل .

إن طفل القرن العشرين غير طفل القرون الماضية . فقد كان هذا الأخير يخطو بين أحضان الطبيعة ويتربى تحت كفها . والطبيعة تعرف كيف تحمي نفسها وتدافع عن نفسها ، وما كان أشبهه بصغار الحيوانات سير وراء غريته أكثر من سيره وراء بجمته وتجربته ، ويلبي نداء حاجاته أكثر من تلبية لدواعي بجمه ولذته .

وليس هناك شك في أن صفار الحيوانات قد زوّدت بأساحة أمضى مما زود به أبنائنا . وأعدت للحياة إعدادا يتناسب مع ما ينقصها من إشراف . ويكفى أن نلاحظ أن مدى الطفولة لدى بني الانسان أطول منه لدى أية طائفة من طوائف الحيوان . فسرعات ما يجوب صفار الحيوان في حين أن بيننا من يتعثرون في ذبولهم زمتا . ويلاقون الأمرين من اكتساب عادة المشي والتحكّن منها لم وليس نعمة من أب أو أم إلا لاحظا أن طفلها يسارع إلى التهام كل ما يقع في يده سواء أكان فيه فسخ أم ضرره حياته أو موته . وعلى العكس من هذا نرى الحيوانات بالرغم من قربها من الأرض لا تتلقم إلا ما يلتئم وطبيعتها ، وتتخير إلى حد ما أطعمتها ، وكأنما منحت من غريزتها حارسا أميناً يعينها عن الرقابة والإشراف .

هذه المزايا الفطرية وكثير غيرها لا بد أن الإنسان الأول قد قاسم فيها وورثها أبنائه وذويه ، فنشأوا على البداوة والخصوبة وشدة البأس .

وأما أطفال اليوم فقد رفهاهم فأضعفناهم ، وسلبناهم ما منحوا من أسلحة طبيعية دون أن نعوضهم بدلها أسلحة أخرى صناعية ، وبهذا أصبحوا عرضة لشتى الأمراض ومختلف العلال .

كم أتمنى لو بقي طفل القرن العشرين على ما كان عليه طفل القرون الماضية من صلابة وقوة مقاومه ولكن مادما قد سرنا في طريق الحضارة الشائكة ، من بعض بواحيه فواجب علينا أن نتدبر له بكل ما ييسره من دفاع ومقاومة . واجب علينا أن نغير الطفولة قسطا وافرنا من عنايتنا وأن نتعاون ونتضافر على العناية بها ، والسهر على تربية أطفالنا تربية تجعل منهم عدة لوطنهم وذخيرة صالحة لأمتهم .

فالأطفال أمانة في عنقنا وقلوبهم الطاهرة حواهر نقيسة خالية من كل نفس ، فان عودوا الخير نشأوا عليه وسعدوا في الدنيا والآخرة ، وان عودوا الشر شقوا ، فالطفل خلق قابلا للخير والشر جميعا ، وإنما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول ” كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه “ ، فالطفل في أوائل عهده بالحياة وفي سنه الأولى يكون لنا في مستقبل في سهولة كل أثر وينطبع في صميم نفسه كل تأثير . وكل ذلك يتطلب منا يقظة شديدة وسهرا على صالح أطفالنا .

فلا تسمى أيتها الأم أن تعلمي طفلك آداب الأكل . فعلميه أن يضل يديه قبل الأكل وبعده وألا يأكل الطعام الا يمينه ، وأن يقول عليه باسم الله عند أخذه ، وألا يمدق النظر الى من يأكل معه ، وألا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وألا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده وثوبه ، وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات ، وأن يقبض عنده كثرة الأكل بأن يشبهه كل من يكثر الأكل بالبهايم ، وأن يذم بين يديه الطفل الذي يكثر الأكل ويمدح

عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وان يجب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن ، علميه أيتها الأم ألا يتكلم وفمه مملوء بالطعام ، وألا يكثر من القعود والقيام أو اللعب وقت الأكل ، ولتأخذى أيتها الأم طفلك بمواعيد منظمة محدودة فلا تاكل .

ويجب ألا يوجد الطفل مطلقا على مائدة الكبار أو القرب منها وقت الأكل ، وإنما يعطى أكله في مكان خاص حسب القواعد الصحية المناسبة لسنة في كل طور ، لأنه من الخطر على خلق الطفل وعاداته أن يرى الكبار وهم يأكلون ، فإذا قلدهم يضر نفسه ويعتاد النهم من الصغر بدون ادراك للضرر ، ويجب ألا يجلس الى مائدة الكبار قبل سن السادسة على الأقل .

ولا تستعنى في حضانة طفلك وإرضاعه الا بامرأة صالحة متدينة تاكل الحلال ، فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فاذا أخذته الطفل عجننت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث .

ولا تسمحي للزائرين والزائرات من الأقرباء والأصدقاء بتدليله ووضعهم على حجر أحدهم أو إحداهن ، كما هي العادة الشائعة عندنا ، وتنقله من زراعى هذا الى زراعى هده ، بل يجب أن تعود الأم طفلها الاستقلال والانتكال على نفسه بقدر الامكان . ويجب أن تتركه يلعب ويجرى كما يشاء مع ملاحظتك له عن بعد حتى لا يتجاوز حد المعقول ولا يتعرض للخطر ، فينشأ على النشاط والرجولة وتمو عنده ملكة التفكير .

ولا تثقل جسم طفلك بالملابس الكثيرة التي تمنعه من الحركة فإن الحركة من أهم وسائل الصحة واركبه يلعب . ولكن راقبيه أو الحظيه دائما بين رعايتك ، واجتهدى أن يكون في أعباه بعض الحركات الرياضية التي تقوى جسمه وتقيم عوده . ويجب أن تطبعيه على الخشونة والقوة فيجب أن يحنب لبس الديباج والحرير والذهب .

ولا تنطقى الحروف مشوه . كما تفعل الكثيرات من الأمهات عند مداعبة أطفالهن كأن تقول الأم أو غيرها ( يا أكتى ) بدلا من يا أختى أو يا ( لوسى ) بدلا من ياروسى أو يا أبده بدلا من يا عبده فان هذا الدلع يمرن المخارج الصوتية تمرينا خاطئا على النطق بها ويكون من الصعب عندئذ إصلاح الخطأ بعد أن رسخ في عقل الطفل نطقه وارتبط مع غيره من معلومات الطفل على هذه الصورة .

ولا تعودى طفلك التثمم ولا الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها عليك اذن أن تقتصدى في التائق فالأم المثقفة ليست هي التي تمحوص على اتخاذ أحدث المخترعات في الزى وأدق الأدوات والمبتكرات للتجمل بل هي التي تهتم بتربية أطفالها وتعنى بشأنهم .

وأهم شيء يجب أن نوجه اليه الأنظار أن نحفظ أطفالنا من قرناء السوء الذين يفسدون طفلك العزيز ويطبعونه على الكذب والحسد والسرقة والنميمة فاحفظه من هؤلاء بما تقتضيه عليه من سر الأبرار والصالحين وذوى الشهامة والإيثار لتفتحن عينيه على الفضائل والمثل العليا .

ومهما طهر من الطفل من خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يحازى عليه بما يفرح به ويمدح بين الناس عليه. وإذا ظهر من الطفل ما يخالف ذلك فينبغي أن يتعاقف عنه ولا سيما إذا ستره الطفل واجتهد في إخفائه ، وإن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب فقولى له أيتها الأم الكريمة : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ، ولا تثقل القول عليه بالعتاب في كل حين حتى لا يسقط وقع الكلام من قلبه .

وحذار أن تنهى طفلك عن العمل القبيح بما يربى فيه ملكة الخوف والفزع فلا ترهيه بالوعول والبعج .

ويجب أن يعود الطفل في بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ويجب أن يمنع من أن يفاخر أقرانه بشيء مما يملكه والده أو بشيء من مطاعمه وملايسه أو كتبه وأدواته بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم . فعلميه أيتها الأم الكريمة أن يقول ” متشكر ” و ” من فضلك ” وما إلى هذين من التعبيرات التي تصقل ذوقه وأدبه . عوديه على أن يكون ذا عزيمة قوية يقول الحق ويفعل الخير بلا تردد ويؤدي الواجب بلا توان .

عوديه أن لا يأخذ شيئا من الأطفال بل يعلم أن الرفعة في الاعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة .

اجعل طفلك يتحمل الأُم بصبر وشجاعة وعاملية بالحنان في مكان الحنان والشدة في مكان شدة فلا تنصربى الكرسي الذي كان سببا في وقوعه مثلا ، ولا تقبل موضع الأُم بجسمه لا تشجعيه على أن يضرب غيره بأن تبدى له استحسانك إذا ما انتصر على طفل آخر ، فان ذلك يعوده الشر ووجه الأذى .

وينبغي أن يعود الطفل أن لا يبصق في مجلسه ، ولا يتخط ، ولا يتنائب بحضرة . . . . ولا يضع رجلا على رجل . . . . ولا يضع كفه تحت ذقنه فان ذلك دليل ل ويجب أن يعلم كيفية الجلوس ويمنع من كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على راحة وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان .

وبعد أن يعود طفلك من المدرسة ينبغي أن يؤذن له أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المدرسة بحيث لا يتعب في اللعب فان منع الطفل من اللعب وارهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكائه وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا .

علميه أيتها الأم طاعة والديه ومعاليه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب أو أجنبي وأن ينظر إليهم بعين الإجلال والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم . وإذا ما بلغ الطفل سن التمييز ينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان .

ولا تنسى أيتها الأم أن محاولة تعلم الطفل عدة أشياء في وقت واحد أو طبعك منه أن يقوم بما ليس في استطاعته لا ينتج إلا الفشل المحقق فعليه القليل ثم القليل لتستطيعي أن تلاحظيه وتستطيعي هو أن يعمل به ويعتاده .

وثق أيتها الأم أن البيئة العائلية تؤدي دور هاماً في توجيه سلوك لطفل ومساعده على أن ينظم دوافعه الوجدانية وعلى أن يكتسب العادات الحميدة التي تقوى الخلق . ومن أهم هذه الدات ضبط النفس والخصوع والنظام وغنى عن القول أن النظام الذي يمرض على الطفل لا بد وأن يكون مشعباً بروح الإنصاف والعطف والتعاون ، كما أنه من واجب لأم أن تحاول دائماً أن تفهم الطفل بقدر المستطاع ضرورة خضوع لنظام . وليس من المنظم في شيء أن يغوف الطفل " بالقول " و " البعج " لأن التربية التلقائية التي تسودها روح الحرف والتعسف والزجر والاستبداد فإنها تؤدي حتماً إلى غرس الاتجاهات السادة المعوجة وإلى تقاوم التقاض الصغيرة التي قد تشوب سلوك الطفل والتي كان من الممكن تقويمها شيء من حسن التدبير والفهم والعناية .

فالطفل الذي تسوء أخلاقه صحبة بيئته العائلية . ويمكن انقطع بأن جميع الانحرافات النفسية تقع بتبعيتها على البيئة العائلية . ومن الأسير التأكيد من صحة هذا الحكم من درايات حالات غلبت الملاجىء والأصلاحيات فهي تبين لنا بوضوح التأثيرات التي الذي تتركه في نفسه الطفل البيئة العائلية التي يشبع فيها العساد والشقاق . سوء التدبير .

فالطفل الذي ينشأ في بيئة فاسدة محنة يحاول - وهذا طول سنى لطفولة والمراهقة أن يقاوم السموم المعنوية التي تبفسها في قلبه وصممه بيئته العائلية .

ولذا كثيراً ما ندينا بالنساء عيادة سيكولوجية مؤلفة من طبيب وسيكولوجي ومرشد اجتماعيين في كل ملجأ وأصلاحية ومدرسة وجامعة ومؤسسة صناعية أو تجارية أو إدارية كبرى ، وتكون مهمة هذه الأياداة التوجيه ولارشاد ومساعدة كل من يشكو من معضله سلوكية أو من حالة نفسية شاذة على حل مشاكه والبراء من أعراضه المرصية وتحقيق توازنه وتكامله .

وأخيراً وليس آخراً كما يقولون نريد من الأم ابحديرة بهذا الاسم الكبير أن تكون ممرضة ومرصية ترعى ابنها وقواعد الطب أمامها وتسهر عليه ومصباح العلم يضيء بين يديها ، وإذا ما لاحظت على طفلها طاهرة لم تفهمها ألسانه تدرك سببه ، سارعت إلى الاخصائيين من الاجتعيين والأطباء ، فإن معالجة شؤون الطفولة من أدق المسائل وأعقدها وأجدرها بالاستشارة والتدبير .

رشاد محمد محبوب

تم طبع هذه المحلة في يوم ٥ من شعبان سنة ١٣٩٣

(٢٥ يولييه سنة ١٩٤٤) ما

مدير المطبعة الأميرية

صحت كبرى